إلى الإسلام من جديد

(٣)

وحيد الدين خان

عليكم بسنتي

إلى الإسلام من جديد
(٣)

عليكم بسنتي

الطبعة الأولى

١٩٩٢م - ١٤١٣هـ

- القاهرة -

سنة الرسول

إن أهمية السنة في الدين بالغة جداً ، فكل ما قاله النبي أو عمل به هو معيار للمسلمين ومقياس لعملهم ، إذ يلزم علينا – نحن المسلمين – أن نطبق سنته ﷺ في كافة ميادين الحياة ، وأن نقلده في الأمور كلها ، ففي اتباع سنته يكمن سر النجاة في الدنيا والآخرة .

وفي أوساط المسلمين وفاق حول تلك الأمور ، فليس هناك من يخالف في حجية السنة في التشريع الديني ، غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو : ما هي حقيقة هذه السنة ؟ هناك مفاهيم خاطئة قد تبناها المسلمون – بطريق شعوري أو غير شعوري – فيما يتعلق بالسنة . فالسنة في حد ذاتها – هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل ، ولكن – في الواقع – قد صاغ المسلمون بأنفسهم فهرساً للسنة يتضمن بعض الأشياء الثانوية نسبيا في حياة

النبي ﷺ ، فمن يهتم بذلك الفهرس يطلق عليه بأنه متبع للسنة ، بينما الشقة بعيدة بينه وبين أتباع السنة الحقيقية الأصلية ، ولنضرب لذلك مثلاً يكشف القضية بوضوح :

روي عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان في بيتها فدعا وصيفة له أو لها فأبطأت فاستبان الغضب في وجهه فقامت أم سلمة إلى الحجاب فوجدت الوصيفة تلعب ، ومعه سواك فقال : لولا خشية القود يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك[1] .

هذه الرواية تشير إلى أن النبي ﷺ حينما كان جالساً في بيته كان يحمل في يده سواكاً ، وقد استنتج بعضهم من هذا أن السواك كان محبباً إلى النبي ﷺ إلى حد أنه لا يفارقه حتى لحظة واحدة . وتحت وطأة هذا الحماس لأتباع السنة ، جعلوا يعولون على السواك ويولونه اهتماماً بالغاً وذلك بوضعه في الجيب حتى يتمكنوا من استخدامه متى أرادوا ، ولكي لا تفوتهم سنة السواك ولو مرة واحدة .

(١) الأدب المفرد ، باب قصاص العبد : ص ٢٩ .

إن هذا الاهتمام المبالغ فيه بالسواك ، اهتمام لا يوجه إليه أي نقد أو اعتراض . فالسواك سنة حقاً ، حتى أن النبي ﷺ بيّن أنه : « **لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك** » . ومن ثم فمن اهتم بالسنة فقد اتبع السنة حقاً ، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل الحديث المذكور آنفاً يحتوي على أمر السواك فقط ؟ الحقيقة أنه يتضمن سنة أخرى لا تقل أهمية عن السواك ، بل هي أكثر أهمية من السواك ، والمؤسف أن الناس تمسكوا بالسواك ونحَّوْا الأخرى جانباً . شأن المسلمين في ذلك شأن ذلك الرجل الذي حصل على فاكهة ، فأخذ قشرتها ورمى بلبها .

لنقف قليلاً ، ونتأمل هذا الحديث . إنه يحتوي على أمرين اثنين :

● **أولهما** : أن النبي ﷺ كان جالساً في بيته وكان بيده سواك .

● **وثانيهما** : أنه استبان الغضب في وجهه ﷺ وكان على وشك أن يضربها بالسواك لولا أنه تذكر فوراً قبضة الله

في الآخرة ، ومن ثم أعرض عن إلحاق الأذى بها فاستعمال السواك لتنظيف الأسنان سنة ، وكذلك تغليب خوف الله على العقل إلى حد أنه رغم حدة الغضب عند المرء ورغم مقدرته على تحقيق ما يريد ، فهو يعزف عن إلحاق الأذى بالآخرين ، ويتجنب الضرب ولو بأبسط الأشياء كالسواك ، فهذا سنة أيضاً . ولكن المؤسف أن المسلمين يجهلون هذا الجانب البارز من الحديث ويتمسكون بالسواك فحسب .

وهناك مئات الآلاف في أوساط المسلمين ممن يتبعون سنة السواك ، أما سنة كظم الغيظ وكبح جماح الغضب ، والصبر على الأحوال غير المرضية ، والإعراض عن الأنشطة القمعية مع القدرة عليها ، قد أصبح شيئاً نادراً ، لا نجده إلا في قلة من الناس .

إن القرآن – من خلال آياته العديدة – يحث ويحض الناس على اتباع سنة الرسول إلا أن الأمور التي تحظى باهتمام بالغ من قبل المسلمين باسم السنة ، لا يحمل القرآن

أدنى إشارة إليها ، بينما الأنواع الأخرى من ...
وردت في القرآن بغزارة قد أخرجها المسلمون ...
اتباع السنة ، وهذا مثال على ذلك .

إن جانباً من سورة الأحزاب يلقي ضوءاً ...
الأحزاب التي حدثت سنة (٥ هـ) وقد استنفر ...
مكة ما يقرب من اثني عشر ألف مقاتل تحركوا ...
المدينة قاصدين الهجوم عليها ، ورغم أنه لم تنشب ...
بين الطرفين إلا أن الحصار المشدد حول المدينة ظل ...
شهر . وقد ورد في القرآن : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾ [الأحزاب : ١٠ ، ١١]

في مثل تلك اللحظة الحرجة بدا الضعف ...
من ضعفاء الإيمان ، إذ لم يستطيعوا البرهنة على ...
والاستقامة ، وتتناول السورة شأن هؤلاء الأفراد ...
وورد فيما يتعلق بهذا الشأن : ﴿ **لقد كان لكم** ...

رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

إن الآية توضح أن الحالات المتوترة التي لحقت بالمسلمين أثناء الحصار الذي فرضه الأحزاب ، والشدائد التي كانت تشكل خطراً على المسلمين لم يكن النبي بمعزل عنها بل كان في وسطها مشاركاً فيها ، بل كان الوضع بالنسبة للنبي أكثر خطورة ، فهو الهدف والغاية الأصلية لذلك الحصار . إلا أن النبي كان صابراً مثابراً متصدياً لكل ما يعترضه بكل ثبات ورباطة جأش ، لقد صبر على كل رخيص وغال نازلاً تحت إرادة الله ابتغاء مرضاته . إن هذا العمل الجبار الذي يقدمه النبي ﷺ ينبغي أن يتبناه المسلمون في حياتهم ، كما يلزم عليهم أن ينهجوا نفس نهجه .

كأن السنة التي تضمنتها الآية هي سنة الصبر والمثابرة ، أي تحمل كافة أشكال المعاناة في سبيل الدين والصمود أمام كل الصعوبات ببذل أقصى ما يملك المرء من

جهد . إلا أن الوضع اليوم قد انقلب رأساً على عقب ، فإنك لو أخذت تذكر سنة الصبر والمثابرة ، لرأيت الوجوه مندهشة مبدية إعجابها ، كأنها لا تكاد تصدق أن ذلك من السنة ، ولعل ذلك يرجع إلى الدعاية الخاطئة التي جعلت السنة قاصرة على أمور محددة كاللحية والسواك ، وشرب الماء باليد اليمنى ، والدخول إلى المسجد بالرجل اليمنى ، وتقديم اليسرى عند الخروج منه ، إلى غير ذلك .. ومثل هذه الأمور قد اشتهرت في أوساط المسلمين باسم السنة ، وهم يتمسكون بها ويولونها اهتماماً بالغاً ، بينما الأمور الأخرى لا تتمتع بأية أهمية لديهم . بل إنهم قد أخرجوها من خارطة أذهانهم ، ومن ثم هم لا يحسون بضرورة وضعها في فهرس أتباع السنة .

إنك تجد كثيراً من الناس ممن يهتمون بأمر اتباع السنة ويولونها اهتماماً بالغاً ، ولكنك تجد الأشياء التي يجدر أن تحظى بالأهمية الرئيسية والتي تمثل محور وجوهر الدين ، وقد فهمها المسلمون على أنها خارج قائمة السنة — سواء

أكان ذلك بطريق شعوري أو غير شعوري – مما أسفر عن عدم ظهور فائدة اتباع السنة رغم الاهتمام البالغ بها .

وسأعرض هنا تجربة شخصية قد حدثت لي يتضح من خلالها الفرق بين هذين النوعين من السنة .

لقد كنا في حاجة إلى كاتب آخر لمجلة الرسالة الشهرية ، ووقع الاختيار على رجل للقيام بتلك المهمة ، وأكد أنه سوف يقوم بكتابتها في بيته ثم يزودنا بها شيئاً فشيئاً . فأعطيناه بعض الموضوعات ، وتعهد على أنه سيكمل المهمة خلال خمسة عشر يوماً ثم يأتينا بها .

وحين حضر هذا الكاتب إلى مكتبي كان موعد تناول الطعام قد حان ، فتمّ إحضار الطعام ووضع على المنضدة ، وطلب من الضيف تناول الطعام ، لكنه كان متردداً كأنما تورّط في مأزق ما ، وعندما سألناه عن سبب امتناعه ، صرح قائلاً : إن الأكل على المنضدة أمر مخالف للسنة ، لذا بدا متردداً ممتنعاً عن الأكل ، واستجابة لرغبته أحضرنا له سجادة فجلس وتناول الطعام ثم ذهب

بموضوعات المجلة .

كنا نعلّق عليه الأمل ، على أن يكمل المهمة في مدة لا تتجاوز أسبوعين ليوافينا بها في الموعد المحدد ، وقد انتظرناه ونحن متلهفين حتى مضى شهران متتاليان ، ثم كلفنا رجلاً بمهمة البحث عنه وانتشال الموضوعات التي أعطيناها له من بين يديه ، وحين وصل الرجل بصعوبة إلى مكانه في غرفة كان يقطنها مع زميل له ، عثر على زميله في الغرفة فأعلمه بأنه غير موجود ، وأنه ذهب إلى منزله في الريف ليشارك في قتال جرى بين قبيلته وقبيلة أخرى ، فأصيب بجروح خطيرة مما أسفر عن نقله إلى المستشفى ، وهو الآن تحت العلاج .

وواصلنا البحث ، فبعثنا برسالة إلى عنوانه الأصلي في الريف ، وعلمنا بأن المعلومات السابقة كانت صحيحة ، وأخيراً ، وبعد عدة شهور عثرنا على بيته الريفي ، والتقى به الرجل المكلف من قبلنا ، فأعاد الموضوعات كما أخذها دون أن يكتب منها سطراً واحداً .

والآن نقف قليلاً .. لنمعن النظر في هذه الحادثة .

رغم أني لا أشاطره الرأي في أن الأكل على المنضدة هو مخالف للسنة ، إلا أنه لو سلمنا بذلك لوجدنا كاتبنا قد طبق سنة وترك سنتين هما أهم منها بكثير . وطبقاً لما خيل إليه ، فإن الأكل على السجادة من السنة ، وقد أدى تلك السنة ، إلا أنه في نفس الوقت ، لم يحفل بالسنة البالغة الأهمية ، ألا وهي سنة الوفاء بالوعد وسنة الصبر . فهو حسب ما قطع على نفسه من وعد على أنه سيكمل مهمته خلال أسبوعين ليوافينا بها إثر ذلك ، كان لزاماً عليه أن يفي بوعده ، وفي حالة عدم قدرته على ذلك لعذر أو حادث عرض له ، كان يجب عليه أن يحيطنا علماً بذلك ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، فلم يف بوعده ولم يبلغنا بعذره أيضاً . وإذا كان هناك بعض الخلافات بينه وبين قبائل أخرى كان بإمكانه أن يصل إلى حلول سلمية عن طريق تبني أسلوب الصبر والإعراض ، إلا أنه لم يفعل ذلك أيضاً ، مما أسفر عن إصابته بجروح وملازمته للمستشفى عدة شهور .

إن أخانا الكاتب هذا ، قد تخرّج من مدرسة إسلامية أهلية . وكان يملك رصيداً معرفياً هائلاً حول السنة ، إلا أن العقلية التي نشأت لديه حول السنة ، كانت تضم بعض الأشياء الفرعية والجزئية كإعفاء اللحية قدر قبضة اليد ، والأكل على السجادة ، وشرب الماء باليد اليمنى ، وكان بمعزل عن شعوره أن الوفاء بالوعد ، والصبر ، والإعراض عن خوض الصراعات أيضاً من السنة . وهذا هو السبب الذي جعله متشدداً في تطبيق سنة الأكل على السجادة ، بينما لم يشعر بحاجته إلى تطبيق سنة الوفاء بالوعد والصبر والإعراض .

هذا هو المأزق الذي تورطت فيه الأمة بكاملها ، إذ هناك العديد ممن يقرّون بأهمية السنة ويتلهفون إلى اتباعها ويبدون عزيمة صارمة إزاء التمسك بها . إلا أن الأشياء التي يُخيّل إليهم بأنها من السنة هي في الحقيقة بعض الآداب ، فهم يتلهفون إلى اتباع تلك الآداب الجزئية ويولونها اهتماماً بالغاً ، وما عدا ذلك من السنن التي أضفى عليها النبي ﷺ

تأكيداً مبالغاً وحضّ على التمسك بها لا تجد أي صدى أو اهتمام لدى متبعي السنة ولعل سبب ذلك يعود إلى أنهم لا يعرفون تلك الأشياء باسم السنة .

لو أنك ذكرت في إحدى التجمعات تلك السنن المعروفة فلا أحد يحسّ بغرابتها ، أمّا إذا خضت في ذكر السنن الأخرى ، كسنة التفكرّ ، وسنة الاعتبار ، وسنة الصبر ، وسنة الإعراض ، وسنة النصح ، وسنة الدعوة ، ترى الإعجاب قد بدا في عيون الناس ، كأنك تعرض عليهم أمراً غريباً .

يقول النبي ﷺ : « **بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء** » .

إن هذا الحديث يتناول غرابة الدين ، وليس المراد بذلك أن الناس جميعاً سيتركون الصلاة ، أو سيختفي المؤدّون لفريضة الحج ، كيف ذلك وقد ثبت عن طريق أحاديث أخرى ، بأن مقيمي الصلاة والمتمسكين بالصيام سيظلون على وجه الأرض إلى أن تأتي القيامة . ولكن المراد

بغرابة الدين ذلك الذي كشفنا عنه في المثال الذي أسلفنا ذكره ، أي أن تصبح سنة الأكل على السجادة أو الحصير معروفة لدى الناس ، بينما سنة الوفاء بالوعد وسنة الصبر والإعراض غريبة لديهم .

وهناك بعض الأمور التي تعد سنة بالنسبة إلى حقيقتها وجوهرها ، وليست سنة بالنسبة إلى مظاهرها الخارجية ، وفي هذه الحالة تمسك المسلمون بهيكلها الظاهري معتقدين أنهم يطبقون السنة ، بينما السنة في هذه الحالة تكمن في الحقيقة وليس في الصور الخارجية .

لنضرب مثالاً على ذلك ، هناك كثيرون – في أوساط المسلمين – ممن يستحضرون بعض الكلمات ويرددونها صباح مساء ، معتقدين أنهم بذلك يمارسون الأذكار المسنونة ، في حين أن الأذكار المسنونة اسم للكيفيات المسنونة وليست بعض ألفاظ أو جمل معينة . إن ذكر النبي ﷺ نفسه ، كان عبارة عن تذكر الله ، وكان قلبه مفعماً دوماً بذكر الله . ونتيجة لتلك الحالات النفسية

التي يعيشها ﷺ كانت تخرج على لسانه بعض الكلمات المعبرة عن ذلك القلب المفعم بخشية الله ورجاء رحمته ، إنها تشبه الذكر إلا أنها كانت من صميم قلبه وأعماق فؤاده ، وليست ترديداً لفظياً ظاهرياً فحسب .

إن النبي ﷺ كان يتمتع بمعرفة عميقة فيما يتصل بالله ، جاء في الحديث أنه كان دائم التفكر ، أي أنه كان مستغرقاً دوماً في التفكر وتذكر الله . إنه كان يذكر نعم الله التي لا تحصى عدّاً ، وتغمر قلبه عاطفة الشكر ، وكان يستحضر عظمة الله وهيبته ، وقلبه مفعم بالإحساس بكبرياء الله . فإذا كان كذلك كان يجري على لسانه تلقائياً ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . وهكذا كان ذكر النبي ﷺ ، كان كل ذكر ترجمة لما يجيش في أعماق قلبه . هذه هي حقيقة الأذكار التي يطلق عليها الأذكار المسنونة .

المحبة أم الطاعة :

كان هناك شاعر باللغة الأردية ، بارع في وصف

النبي ﷺ ينظم القصائد المطولة الشيقة بعد أن يزينها بألفاظ مزخرفة فضفاضة ، وكان يلقيها في الحفلات ليكسب إعجاب الحاضرين ، إلا أنه لا يقيم الصلاة ولا يؤدى فريضة الصيام والزكاة رغم غناه المفرط ، ولم يؤد فريضة الحج أيضاً ، لكنه يطلق على نفسه عاشق الرسول بكل فخر واعتزاز رغم لا مبالاته فيما يتصل بطاعته للرسول .

وتجد كثيراً في أوساط المسلمين ، مثل هذه النوعية ، ممن يبرعون في وصف النبي ومدحه بألفاظ شيقة وجذابة ، ويقيمون لذلك حفلات المولد الشريف ويولونها اهتماماً بالغاً ، إلا أنه لا تبدو فيهم أية رغبة في اتباع الرسول وطاعته ، ومثل هذه المحبة لا قيمة لها في الدين ، حيث يرحب الدين بتلك المحبة التي تصحبها الطاعة والاقتداء ، يقول الله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] . وقد عقب المفسرون على هذه الآية بقولهم : إن إظهار الحب لله ولرسوله لا

يكفي وحده بل يجب على المحب أن يسير سير من يحب وينهج نهجه . (فمن ادعى المحبة مع مخالفة الرسول ﷺ فهو كاذب)[1] .

حدث لي مرة أن ألقيت محاضرة في لقاء أقيم بمناسبة السيرة النبوية وقد سلطت الضوء خلالها على نمط حياة النبي ﷺ ومنهجها وأسلوبها ، وقد لقيني أحد المستمعين معرباً عن وجهة نظره حول محاضرتي قائلاً : إنك لم تذكر شيئاً حول السيرة النبوية أثناء المحاضرة ، فأجبته بأني قد أوضحت أسلوب حياة النبي ﷺ ومنهجه ، وهذا كل ما يعنى بالسيرة ، إلا أنه رفض ذلك قائلاً : كلا . السيرة أن تبين معجزات النبي ﷺ وكراماته ، وتبين قصص عشق النبي وغير ذلك ، وقد خلت محاضرتك من هذه الأشياء تماماً .

إنه خطأ فاحش ، هذا الذي تورط فيه المسلمون ، لقد فهموا غير السيرة سيرة وغير السنة سنة . إن كل ما

(١) التفسير المظهري / ج ٢ : ص ٣٧٠ .

يعنى باتباع النبي أن نجعل حياته أسوة وقدوة لنا، أما الكلمات المزخرفة والجذابة فهي لا تجدي شيئاً وليست كافية بالنسبة للايمان بالرسول .

ورد حديث في كتب السنة مع اختلاف الروايات من حيث اللفظ ، هذا جزء منه : (استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودي . فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم فغضب النبي ﷺ حتى رئي في وجهه ، ثم قال : « **لا تفضلوا بين أنبياء الله** »)[٢] .

إن تفضيل نبي على آخر أمر يتعلق بالله فقط ، ولا دخل لنا فيه ، إنه لا يدخل في إطار مهمتنا إثبات أفضلية نبي على آخر لنفتخر ونعتز به ، إن كل ما يهمنا أولاً وأخيراً هو أن نطبق أوامر الرسول ، وأن نجعله أسوة لمسار حياتنا .

---

(٢) جامع الأصول / ج ٨ : ص : ٥١٣ ، ٥١٤ .

إن النعم التي نرجو حصولها ستكون نتيجة لاتباع الرسول وليس بناء على ما ألقينا من محاضرات فخرية وشيقة حول عظمة الرسول ، ولا على اعتباره عنواناً لاعتزازنا وفخرنا القومي .

سأعرض هنا بعض الأحاديث التي تبرز منهج وأسلوب حياة النبي ، والنموذج الذي تركه لنا في كافة ميادين الحياة :

عن أنس قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل** ، ثم قال : **يا بني وذلك من سنتي ومن أحب سنتي فقد أحبني** » .

إن صلتنا بسنة الرسول ﷺ ليست باللباس أو الشعر أو السواك فحسب ، بل يتجاوز مداها إلى كافة مجالات الحياة .

ما هو الأسلوب أو النمط الذي يمكن اختياره للتعايش مع الناس ؟ السنة هي التي تدلك على ذلك . فهي تؤكد

على أن نفسيتك ينبغي أن تكون طاهرة وخالية من النزاعات العدوانية ضد الآخرين ، وأنه لا شك حين يكون المرء بين الآخرين فإنه سيواجه أنواعاً من المعاملات والسلوكيات ، والذي قد يؤدي إلى استيائه وتضايقه وغضبه ، فلا غرابة في ذلك ، فهو أمر طبيعي ، لكن سنة النبي ﷺ في ذلك هي أن تكبح جماح تلك النزعة وتتغلب عليها ، وتحدّ من سطوتها

إن الإعراض عن الشكوى ، وقمع نفسية الاستياء ، وغضّ الطرف عنها ، والعفو والصفح عن الأخطاء ، وتحمل المشاقّ ، والصبر عليها ، بدلاً من إلقاء المسئولية على الآخرين ، هذه هي السنة النبوية ، فمن أحبّ سنته ﷺ يكون معه في الجنة .

أمّا الذين يبدون لا مبالاتهم حول نمط وأسلوب حياة النبي ، ويقتفون رغبات النفس وهواها ، والذين يغرسون في أنفسهم نزعات سلبية بدلاً من النزعات الإيجابية ، فإنهم سوف يبعدون عن المكان الذي يقطنه الأنبياء والصالحون ،

لأنهم لم يحسنوا حين تبَنَّوْا أساليب غير تلك التي تبناها الأنبياء والصالحون .

الفلاح في سنة النبي :

« لازلتم منصورين على أعدائكم مادمتم متمسكين بسنتي فإن خرجتم عن سنتي سلّط الله عليكم من لا يخافكم ولا يرحمكم حتى تعودوا إلى سنتي » رواه مسلم .

إن الدين الذي تركه النبي ﷺ لا يعتريه أي نقص حتى يتطلب إلى إكمال ، وعلينا أن نتناوله كما هو . إن الجرأة على إضافة أو إنقاص شيء منه يسفر عن نشوب خلافات وصدامات بيننا وهو ذات الضعف والهزيمة .

إن النبي ﷺ علّمنا العقائد وما يتصل بها ، وعلّمنا أن الله واحد أحد ، وأنه هناك جنة وجهنم بعد الموت ، وأن الله سبحانه يوحي إلى أنبيائه بواسطة الملائكة وما إلى ذلك ، وهي عقائد يلزم علينا أن نتبناها ، كما نصّ على ذلك القرآن والسنة ، ولو خضنا فيها بأفكارنا البشرية وأدخلنا المباحث اللاهوتية أو الكلامية المبتدعة لنشأت آراء متضاربة

ومتناقضة مما يؤدي إلى تدافع أصحاب رأي معين مع أصحاب رأي آخر وهكذا .. كما دلّنا ﷺ على الأحكام المتعلقة بالعبادات ، وقد طبّقها في حياته ، ليكون لنا – في ذلك – أسوة ومنهاجاً ، ولم يبق لنا من خيار إلا أن نتمسك بها كما هي دون زيادة أو نقصان . ولكن الأمر ينقلب رأساً على عقب حين نذهب نخترع المسائل والأساليب الجديدة في العبادة ، لأن ذلك يؤدي حتماً إلى التفرقة والتشيّع وهو سبب ضعف الأمة واضمحلالها .

وقد أمرنا ﷺ أيضاً ، بالصبر والصفح عمن أساء إلينا أو تسبب في مضايقتنا ، ففي مثل هذه الظروف لو قام أحد لينتقم ويأخذ الثأر من الخصم لأدّى إلى إذكاء نار العداوة والتناحر بين الطرفين مما يسفر في النهاية عن ضعف الأمة الإسلامية . أمّا فيما يتعلق بالحكومات والبسلطة ، فقد علّمنا ﷺ ألا نتطلع إلى المناصب ولا نطمع فيها ، لأن الناس حين يتطلعون إليها فإن ذلك سيؤدي إلى نتائج سيئة للغاية ، حيث تتقد نار العداوة بين المتنافسين وتنشأ جبهات

متعارضة في أوساط الأمة المسلمة . مما يؤدي إلى انهيار الأمة المسلمة وتقلصها بأيدي أفرادها . كما علّمنا النبي ﷺ بأن نجعل الآخرة هدفنا ونَعدّ الدنيا عابرة فحسب ، ولو جعل أفراد الأمة الإسلامية الدنيا هدفهم المنشود لتعدد المطالبون لشيء واحد ، فينشأ التنافس الذي يؤدي في النهاية إلى التناحر والصراع مما يثير الحسد والبغض وتأجيج نار العداوة والانتقام .

كيف كان يتكلم النبي ؟ :

إن نمط كلام النبي ﷺ وأسلوب تعبيره كان بيّناً واضحاً تقول عائشة رضي الله عنها : (ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ولكن يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه) . وفي رواية أخرى : (إنّ رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم كان يحدّث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه) (متفق عليه) .

إن كلام المؤمن هو كلام يخرج من أعماق قلبه مفعماً بخوف الله وخشيته موقناً أن كل كلمة يبوح بها

سوف لن تفلت من سجل الملائكة الذين كلفهم الله بهذا الأمر ، ويحسّ أنه سيلاقي ربه ليسأله عن كل ما تفوّه به . إن مثل هذه المشاعر المرهفة تغرس في الإنسان الإحساس بالمسئولية ، ومن ثم حين يرغب في التفوّه بكلمة يساوره الخوف والشعور بأنه إنما يفعل ذلك أمام الله وملائكته . إنَّ مثل هذا الإحساس يعقد لسانه ويمسكه بلجام . إنه يفكر مليًّا قبل أن يبوح بأية كلمة ، وحين يبوح بها فإنه لا يغفل من أن يزنها بميزان دقيق . إن هيمنة رهبة الله عليه تنزع عنه سرعة كلامه وحدته ، والإحساس بالسؤال والحساب في الآخرة يقف دون إلقائه الخطب الحارة .

والحقيقة أن من تجتاح قلبه مثل هذه المشاعر المرهفة فلا مناص من أن يصبح رجلاً مجداً للغاية ، ومن يصبح هذا شأنه سيكون أسلوب كلامه هو نفسه الذي ذكرته عائشة في الحديث المذكور آنفاً .

الدعاء الحسن :

كان من سنة النبي ﷺ أنه عندما يطلب منه أحد

أن يدعو له ، يبادر بنفس تلك الكلمات التي استخدمها الطالب أثناء طلبه . قال أبو هريرة مرة ، طالباً من الرسول أن يدعو للأمه : (يا رسول الله ادع الله أن يهدي أم أبي هريرة) . وكان يضيف أحياناً – حسب الظروف – بعض الكلمات الرائعة ، إذ ثبت أن أبا هريرة جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ادع الله أن يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين . فبادر النبي ﷺ بقوله : « **اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحببهم إليهما** » .

هذا ما كان من النبي ﷺ في الدعاء الحسن ، أما إذا طالبه أحد بدعاء سيء فكان يتخذ أسلوباً معاكساً تماماً ، فهو بدلاً من أن يدعو على أحد يبادر بالدعاء الحسن له . إن طفيل بن عمرو الدوسي قد اعتنق الإسلام على يدي النبي ﷺ حين كان بمكة ، ثم عاد إلى وطنه وباشر التبليغ في قبيلة دوس ، لكن محاولاته تلك لم تجد أي صدى بين أبناء قومه ، فعاد طفيل إلى النبي ﷺ مرة ثانية وبدأ يقول : يا رسول الله ادع على دوس . فماذا فعل الرسول ﷺ ؟ إنه لم يبحث القضية مع طفيل ، بل أخذ يدعو :

« **اللهم اهد دوساً** » وعندئذ عاد طفيل إلى وطنه وأخذ يدعو الناس إلى الإسلام ، فأقبل الناس عليه واعتنقوا الإسلام جميعاً ، وكان من بينهم أبو هريرة رضي الله عنه .

إن هذا المنهج الذي كشفت عنه هذه الوقائع إنما هو المزاج الأصلي للمؤمن ، إذ النفسية الإيمانية تتمنى الخير للآخرين ، ومن ثم فالمؤمن يتمنى للآخر ما يتمناه لنفسه ، إنه يحرص دوماً على هداية الآخرين ، لذا حين يرى أحداً يعرض عن دعوته ولا يستجيب له فإنه لا يدعو عليه ، بل على العكس من ذلك ، فهو يدعو الله أن يفتح قلبه للإيمان .

من هو المسلم ؟ :

قال النبي ﷺ : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** » .

إن من يجد الله بالمعنى الحقيقي فإن ذاته تذوب تماماً أمام قدرة الله وجلاله ، ويلقي بنفسه أمام الله مرغماً ، ويضع نفسه في ذمة الله تعالى .

إن هذا الإرشاد النبوي يوضح أنماط سلوك مثل هذا الإنسان ، فمن يكون هذا شأنه ، فهو إنسان نموذجي ، ذكر الله مسيطر على قلبه دائماً ، وإن سلوكه كله يكون تحت مراقبة الإحساس بأن الله يراه ، وأنه لو سار في طريق لا يرضاه الله فإنه سيقع يوماً تحت قبضته فيسأله ويحاسبه .

إن مشاعراً كهذه تلجم لسان المرء فتمنعه من أذى الآخرين ومهاجمتهم وتجرد يد المسلم من القوة التي يبطش بها الآخرين ، وتجبره على ألا ينطق إلا كلاماً صادقاً ، ولا يرفع يده إلا لإقامة العدل ، وأن يقف دوماً إلى جانب الحق ، وليس إلى جانب الباطل .

إن هذه الدنيا تمثل قاعة امتحان . أودع فيها الإنسان للامتحان الذي لا يتم إلا إذا كان الإنسان مخيراً بين أمرين . أما الشمس والقمر فليستا في حالة اختبار ، لأنهما لا تستطيعان السير إلا في مسار محدد ، بينما الأمر بالنسبة للإنسان مختلف تماماً ، إنه يتمتع بحرية كاملة في اتخاذ هذا المسار أو ذاك .

وإذا حللت الحديث من هذه الزاوية فإنك تخرج بنتيجة مؤداها أن الحديث ينص على أن المسلم هو من كانت لديه فرصة ليؤذي الآخرين بلسانه ، إلا أنه رغم ذلك يمسك لسانه خوفاً من الله ، والمسلم هو من كانت لديه المقدرة على أن يرفع يده على الآخرين إلا أن خوف الله يسيطر عليه إلى حدّ أنّ يده تمتنع عن أذى الآخرين .

إن المرء في هذه الدنيا بين دفتي العدل والجور ، والمسلم من يرجّح دفة العدل رغم أن أبواب الظلم مفتوحة على مصراعيها أمامه .

كلمة واحدة تكفي للنصيحة :

لقد أتى صعصعة بن معاوية – عمّ الفرزدق الشاعر المشهور – إلى النبي ﷺ ، فقرأ عليه النبي سورة (الزلزلة) حتى بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ فقال صعصعة ، بعد أن وعيها : حسبي أن لا أسمع غيرها . رواه أحمد .

وكان من عادة النبي ﷺ أنه يلقي على عاتق أحد الصحابة مسئولية تلقين الدين لحديثي العهد بالإسلام . وطبقاً لذلك ، فقد أدخل هذا الصحابي الجديد في ذمة علي رضي الله عنه ، إلا أنه بعد أيام قلائل من تردده على علي رضي الله عنه ، انقطع عن المجيء ، وافتقده النبي ﷺ في المسجد في مواقيت الصلاة لبضعة أيام ، فسأل عليًا عنه ، لأنه المسئول عن تعليمه ، فأجاب علي بأنه لا يأتيه أيضاً . فطلب النبي ﷺ أن يبحث عنه ويستفسر عن شأنه ، وأخيراً صادفه أحد الصحابة وهو يحمل رزمة من الأخشاب على كاهله ليبيعها في السوق ، وأخبره بأن النبي ﷺ كان يسأل عنه ، وعليه أن يذهب إليه ، فطوى الرجل طريقه إلى السوق وتعجّل في بيع أخشابه ، ثم أخذ طريقه إلى النبي ﷺ ، فسأله النبي عن سبب غيابه ، فأجابه بأنه كان يظن بأن تعليمه قد انتهى . فاستطرد النبي قائلاً ما معناه : لم يمر عليك إلا بضعة أيام فحسب فكيف تظن أن تعليمك قد كمل . فقال الصحابي : إنني حين عثرت على الآية : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة

شراً يره ﴾ قد تغير وضعي وأصبحت أشعر بأنني سوف أتحمل مسئولية كل ما أكسبه من حسنة أو سيئة ، صغيرة أو كبيرة . فإذا حدثني قلبي بأن هذا العمل خير وأنه سوف يجلب لي الثواب في الآخرة بادرت بفعله دون تردد ، وإذا وقعت في تردد إزاء عمل ما فإني أعرض عنه ولا أفعله . وبعدما سمع النبي منه ذلك قال له ﷺ : « **يكفيك هذا** .. » .

إن تابعياً كان يتحدث إلى تلاميذه حول خصال الصحابة وصفاتهم وأساليب حياتهم ، فقال : إن الصحابة لم يكونوا يبالغون في الصلاة أو الصوم مثلما تفعلون أنتم ، ولكنه شيء وقر في قلوبهم ألا وهو خوف الله وخشيته . فإذا ما أحس أحد بخوف الله في أعماق قلبه فكأنه استجمع الحسنات كلها ، ومن عجز في خلق تلك المشاعر في نفسه جعل بينه وبين الحسنات حجاباً . إن الذي ترتعد فرائصه من خوف الله يرى الله في الأمور كلها ، ومن ثم يراعي التواضع والإنصاف في معاملاته ، وعلى العكس من ذلك ،

من يرى الأمور من زاوية النظر الإنسانية ، التي لا تمت بصلة إلى الله ، فلا شيء يمكن أن يعوق طريق ظلمه وتمرده .

الحياة الإسلامية حياة مسئولة :

يقول النبي ﷺ : « **مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته** » .

إن الحيوانات تربط بالحبال ، بينما الإيمان ليس حبلاً في ظاهره ، لكنه حبل غير مرئي . والحيوان أن يظلّ رهين حبله لا يتجاوز الدائرة التي يبلغها الحبل ، وهو العمل نفسه الذي يقوم به المؤمن بإرادته الحرة ، وخوفه من الوقوع في قبضة الله الصارمة يمثل بالنسبة إليه حبلاً معنوياً يحدّ من أنشطته ويمسك به دوماً ، فلا يجرؤ على تجاوز الحدود التي رسمها له ربّه ، فيصبح عبداً معقوداً وليس حيواناً مطلق العنان .

إن الامتحان الحسّاس الذي يخوضه الإنسان في الدنيا ، هو أن يصبح بلا اختيار رغم تمتعه بحرية الاختيار

الكاملة ، فهو رغم أنه يستطيع أن يعيش حياة غير مسئولة يقيّد نفسه ويجعلها مسئولة بكل معنى الكلمة ، وهو رغم قدرته على الانتقام . يصفح ويعفو ، وحين تلقى أمامه كلمة صادقة فهو رغم قدرته على تكذيبها يخضع لها ويتبناها ، ويعدل وينصف دوماً رغم قدرته على الظلم ، ويعيد إلى الناس أموالهم رغم قدرته على الاحتفاظ بها . إنه بإمكانه ألا يحفل بأحد إلا أن خوف الله يمنعه من ذلك .

إنّ الله سبحانه وتعالى قد وضع حدوداً للأمور كلها ، على الإنسان ألاّ يتعداها ، فإذا أراد أحد أن يقيم رأياً على شخص ما ، فإن حدّه أن يكون رأيه مبنياً على الواقع لا على المظهر الخارجي ، ولا يحسن به أن يعتمد على التخمينات والقياسات في ذلك . وحدّ البحث عن لقمة العيش أن يتمّ ذلك عن طريق الكفاح وبذل الجهد بكل صدق وأمانة ، فما اكتسبه هكذا فهو له ، ولا يجدر به أن يجعل من الخديعة والنهب والسرقة وسيلة للعيش . وحدّ توجيه النقد للآخرين أن يتمّ ذلك في إطار أدلّة علمية

واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، فلا ينبغي لأحد أن يحكم على أحد دون دليل يثبت ذلك . وحدّ الحديث أن يتحدث المرء مراعياً الجديّة في حديثه ، ولا يحقّ له أن يفعل ذلك بطريق الشتم والسبّ .

إن الفرس المربوط بالحبل حرّ في الحدود التي يبلغها الحبل ، وهو مقيّد بعد ذلك . كذلك المؤمن حرّ في حدود المباح ومقيّد في إطار الممنوعات أو المحرمات ، فمن يعش ملزماً نفسه بهذه القيود سوف يحظى بالجنة ويفوز بها ، ومن تخلّى عن تلك القيود وتجاوزها فهو مجرم في نظر الله ، وتنتظره نار الله الموقدة التي لا ترحم .

الصبر على المكاره :

تروي عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد ؟ قال : **« لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على**

وجهي فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال : يا محمد فقال ذلك فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً »[1] .

إن هذه الحادثة تلقي ضوءاً على منهج النبي وأسلوبه الواقعي ، فهو مهما عانى من الاضطهاد ، ومهما لحقه من أذى ، لم يكن يستخدم النزعات السلبية ، ولم تتقد فيه نار الثأر والكراهية . إنه يبصر المستقبل البعيد بدلاً من الحال ، ويركز نظره على تلك الوقائع التي ما زالت في طي المستقبل بدلاً من أن تكون الحوادث الحاضرة والعابرة موضع

(١) حياة الصحابة : ج ١ ص ٢٥٤ .

اهتمامه ، وسواء أكان الأمر يهمّ الفرد أو الامة ، فإن نبي الله ، في كل ذلك ، يتخطى مراحل الحماسة ويفكر مليّاً ، ويعمل غير عابيء بما لحقه من ضرر أو أذى .

يقول النبي ﷺ في حديث شريف : « **النكاح سنتي فمن أعرض عن سنتي فليس مني** » . وإذا كان النكاح من سنة النبي ﷺ فكذلك عدم الأخذ بالثأر وعدم الانتقام والإعراض عما يواجه المرء من معاناة ومشقات ، كل ذلك من سنة النبي ، ومن أعرض عن سنة النبي فليس منه . والحقيقة المؤسفة هي أننا إذا أعرضنا عن السنة النبوية هذه فلا يحق لنا أن نكون من أمته ، ولا تشملنا شفاعته . فمن لم يستطع أن يتبع سنة النبي ﷺ في الحياة الدنيا فلا يستطيع أن يكون رفيقه في الحياة الآخرة .

نصيحة صحابي :

قال عبد الله بن مسعود : (اطلب قلبك في ثلاثة مواطن ، عند سماع القرآن ، وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة ، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن

يمنّ عليك بقلب فإنه لا قلب لك) .

إن القلب وضع في صدر الإنسان ليكون مهبطاً للتجليات الربانية ، كأن القلب هو بيت ذكر الله ولذا حين يتلى القرآن على المرء يلزم أن يذوب قلبه وتأخذه الرجفة ، وحين يذكر الله يلزم أن ترتعد فرائصه من شدة ما يحس به من عظمة الله ، وحين يخلو بنفسه ليناجي ربه يلزم أن تمرّ به تلك المشاعر والأحاسيس التي يحتاج إليها قلب من يذكر الله . فإذا كان هذا شأن المرء ، فهو دليل على أن به قلباً يخفق وينبض وأنه ما زال يتمتع بالحيوية والنشاط . وإذا كان المرء على عكس ذلك ، فهو دليل على أن قلبه قد ذبل ومات ، أو أنه لا يملك قلباً يتسع لهبوط تجليات الله ، فتلك اللحظات التي تتحرك فيها خيوط القلب وأسلاكه لا يستيقظ فيها قلبه ولا تنبض فيها روحه ، وتخفق المواقف الحساسة التي تقرّب العبد من ربّه في إيقاظ مكامن قلبه . ليعلم مثل هذا الإنسان أنه فقد أغلى ما كان يملك وهو القلب ، لذا عليه – أولاً وأخيراً – أن يسأل الله أن يخلق فيه قلباً خافقاً نابضاً يتسع لتجليات الله .

الفهـــــرس

سنة الرسول ٣
المحبة أم الطاعة ....
الفلاح في سنة النبى ﷺ ٢٠
كيف كان يتكلم النبى ﷺ ٢٤
الدعاء الحسن ٢٤
من هو المسلم ٢١
كلمة واحدة تكفي للنصيحة ٢٥
الحياة الإسلامية حياة مسئولة ٣٢
الصبر على المكاره ٣١
نصيحة صحابي ٣

عنوان المؤلف
ISLAMIC CENTRE
C - 29 NIZAMUDDIN WEST
NEW DELHI - 110013 INDIA
TEL 697333 / 611128

لو أنك ذكرت في إحدى التجمعات تلك السنن المعروفة فلا أحد يحسّ بغرابتها ، أمّا إذا خضت في ذكر السنن الأخرى ، كسنة التفكّر ، وسنة الاعتبار ، وسنة الصبر ، وسنة الإعراض ، وسنة النصح ، وسنة الدعوة ، ترى الإعجاب قد بدا في عيون الناس ، كأنك تعرض عليهم أمراً غريباً .

يقول النبي ﷺ : « **بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء** » .

إن هذا الحديث يتناول غرابة الدين ، وليس المراد بذلك أن الناس جميعاً سيتركون الصلاة ، أو سيختفي المؤدّون لفريضة الحج ، كيف ذلك وقد ثبت عن طريق أحاديث أخرى ، بأن مقيمي الصلاة والمتمسكين بالصيام سيظلون على وجه الأرض إلى أن تأتي القيامة .

الناشر

الرسالة للإعلام الدولي

٧ ش الشيخ محمد النادي ـ مكرم عبيد ـ مدينة نصر

✆ ٢٦٢٣١٠٥ - ٢٦٢٨٤٩٩ - ٢٦٢٢٨٤٠